الفصل الأول: عقيدة السّلام

بالرّغم منْ أنّ التّاريخ يحفلُ بدعاة السّلام، إلا أنّهُ منَ الصّعب أنْ نَجد بين طيّاته مُفكّرًا وداعيةً كانتْ لديه القدرةُ على إبراز مفهوم السّلام كَفكرٍ وعقيدةٍ كاملةٍ متكاملة. ولعلّ هذا وعلى مرّ العُصور، كانَ السّببَ الحقيقيّ وراءَ عدمِ تقديمِ المفهومِ الدّقيقِ للكلمةِ والمبنيّ على أسسِ السّلام. وبالرّغمِ من وجودِ عددٍ لا بأسَ بهِ منْ محبي السّلام، فإنّ تأسيس مجتمعٍ مسالمٍ وعلى نطاقٍ واسعٍ لم يصبح قطّ حقيقةً ملموسةً. ولعلّ حقيقة أنّ مصالح الإنسان تترافق دائمًا معَ وجود السّلام، هي سبب رغبة كلّ فردٍ في المجتمع في الحصول على بيئة مسالمة وحياة آمنة تحقيقًا لمصالحه الشخصيّة.

لكنه يتواجه وعلى نحو متكرّر معَ مثل هذه الحالات المتنوّعة، بحيث يحتاج إلى عقيدةٍ للسلام ليهتدي بها. أمّا أنّ السّلام حاجة بشريّة فإنّ هذا لا يجعله كافيًا ليمارس سياسة ضبط النفس، وأن يبقى مسالمًا في جميع الحالات؛ فهو بحاجة إلى عقيدة تقنعه وعلى مستوى الإدراك بضرورة المحافظة على السّلام في كلّ الأوقات.

نستطيع أن نجد أمثلة على هذا من تاريخنا البشريّ. ولنأخذ الديمقراطيّة على سبيل المثال. فلطالما دافع الإنسان وعلى نحو فطريّ عن فكرة التنظيم الديمقراطيّ، والأمثلة من التاريخ البشريّ موجودة؛ حيث تمّ تأسيس مثل هذا النظام بنجاح، ولو على نحو جزئيّ. لكنّ وصول ثورة كاملة مبنيّة على أسس الديمقراطيّة أصبح حقيقة فقط، عندما قدّم مفكرو أوروبا الحديثة هذه الأمّال والطموحات البشريّة على شكل عقيدة متكاملة.

وحالة السّلام هي حالة مشابهة هنا؛ حيث إنّ السّلام كان يُعَدّ حاجة بشريّة ولمختلف الأعمار. ومعَ هذا، وفي الوقت الحالـي، فإنّ السّلام أصبحَ حاجةً ماسةً لبقاء الجنس البشريّ؛ حيث إنه أصبح حرفيًّا مسألة حياة للبشريّة أو موت. فالسّلام يعني الحياة، وغيابه يعني الموت.

إنّ هدف الكاتب هنا هو أن يقدّم السّلام على شكل عقيدة متكاملة؛ عقيدة توقظ الوعي البشريّ، عقيدة قادرة على تزويد الحلول المستقاة من السّلام لكلّ مشكلات الحياة، وقادرة أيضًا على وصـف الأهميّة الملحّة للسلام من مستوى الفرد وانطلاقًا إلى مستوى المجتمع. وبذا، فإنّ السّلام هو المتطلب السابق لكلّ أنواع التقدّم البشريّ. فبالسّلام نتقدّم، ومن غيره يكون الدمار.

إذن، ما الفائدة المرجوّة من وجود عقيدة للسلام؟

هناك سببان رئيسان لذلك. فعندما يركّز الإنسان على هدف، فإنّه يتبنّى عاملاً معيّنًا ويهمل عاملاً آخرَ. وهذا يمكـن إنجازه بالإقناع فقط في حال توافر التسويغ النظريّ الواضح. ومن غير هذا، فـإنّ الإنسان لا يستطيع أن يكون متحمّسًا لقبول أو رفض أيّ مفهوم أو ممارسة. فعلى سبيل المثال، إذا تجذّرت الفكرة في عقل مجموعة معيّنة أنّ حقوقهم قد انتُهكت وأنه قد تمّت السيطرة عليها، فإنّ عليهم حينئذٍ لاستعادة حقوقهم المغتصبة اللجوء إلى العنف، وفي هذه الحالة فسنجد أنّه من المستحيل ردعهم عن مرادهم، ما لم يتوافر لدينا جدل وفكر قويّـان يؤكّدان لهم أنّ العنف ليـس السبيل إلى حلّ مشكلاتهم، وأنّ مثل هـذا الإجراء «أي العنف» لـن ينفعهم إلا بتصعيد الموقف وزيادة مشكلاتهم وفقدان حقوقهـم. ولاستدراج هؤلاء الأفراد إلى طريق السّلام فلا بدّ من إقناعهم بعقيدة مرتكزة على المنطق، مفادها أنّ إنجاز مطالبهم لا يكـون إلا باستنكار العنف واللجـوء بكفاحهم إلى طرائق

السّلام كبديل. إننا نحتاج إلى عقيدة تمنحنا الأُسس المنطقيّة التي تقنعنا بضرورة رفض أسلوب وتبنّي آخرَ.

فالإنسان يستطيع إنجاز أيّ مهمّة معطاة إذا ما توافرت لديه القناعة الفكريّة بمصداقيّة تطبيقها وعملها. إنها عقيدة تمنح الإنسان الضمانات المناسبة، وإلا كانت النتائج مثبّطة وعكسيّة بغياب الطاقة الضروريّة والحماسة، وهما العنصران الأساسيّان لنجاح أيّ مقاومة وانتصار أيّ كفاح.

وفي السياق نفسه، فإنّ الشجاعة هي المحفّز الأقوى في رحلة الحياة. فالإنسان القويّ يستطيع تسلق قمم الجبال، ومن يفتقر إلى الشجاعة يصعب عليه السير حتى في الطرق الممهّدة. ولكن، ما مصدر الشجاعة للإنسان؟ إنها أيضًا عقيدة تزوّد الإنسان بالشجاعة ليسلك ممرّ السّلام. لقد قيل: «إنّ الإنسان ما هو إلا حيوان عاقل»، وقيل أيضًا: «الإنسان حيوان يسعى إلى التفسير». وكلا المقولتين هنا تعبّران عن النقطة نفسها، وهي: أنّ الإنسان يستقي إشباعه الذهنيّ من أفعاله فقط حينما تكون أهدافه قد أسّست كحقّ له وبصورة مبنيّة على الخطاب العقلانيّ. إنّ محاولة تطوير عقيدة كاملة مبنيّة على أسس السّلام هي بنفس أهميّة السّلام نفسه، والعكس صحيح؛ فكلاهما مترابط ولا تعيش إحداهما من غير الأخرى.

إنّ مثل هذا العنف الذي لم نشهد له مثيلاً في الوقت الحالي من دمار تخلّفه الحروب وعنف منظم من قِبل مفوّضين وحروب عصابات قد سبّب أذًى كبيرًا للبشريّة، ووقف في طريق تقدّمها وازدهارها، وهذه حقيقة يعيشها كلّ سكان الأرض. ولكن، كيف يمكن تفسير هذا؟ إنّ السبب واضح: فالناس لا يمتلكون عقيدة كاملة تفضّل السّلام، بينما يبقى التفسير الوحيد لممارسة العنف هو قوّة مشاعر العامّة وغضبهم؛ فعندما يشعر ناشط بالحاجة إلى

أن يكون قائدًا للعالـم، أو عندما تتـمّ استثارة مجتمع للانتقـام لما أصابه من خسائر ومعاناة، فإنه لا حاجة حينئذٍ إلــى أي تبرير منطقيّ أو عقلانيّ للعدائية. إنّ قوّة المشاعر والعاطفة فعّالة في تنشيط القادة وأتباعهم بالمثل، ولكن عندما يكون الحديث عن السّلام واتّباع أساليبَ سلميّة لطرح الحلول، فإنّ هذا يكون ممكنًـا فقط إذا كان هنالك تبرير قـويّ للسلام. فبينما يعدّ العنف فطريًّا، فإنّ السّلام يحتاج إلى انضباط ذهنيّ وقدرة على التحكم في النفس، فالكلّ يريد إثبات نفســه بنفيه للآخرين، وهكذا فكلّ ما نحتاج إليه هو انفجار عاطفيّ قصير كافٍ للمضيّ قدُمًا بالعنـف. على خلاف الأفعال السلميّة التي تحتاج إلى فكر جديّ لتتكامل.

إنّ الحلّ الوحيد لهذه المعضلة هو في امتلاك الإنسان عقيدة كاملة وشاملة للسلام. ولعلّ المشكلة الفعليّة لأيّامنا هذه هي عدم وجود مثل هذه العقيدة على أرض الواقع. وهنا نطرح السؤال الآتـي: لماذا هذا الجانب السلبيّ في النفس البشريّة؟

إنّ هذا مرتبط بخطة الخلق الخاصّة بالخالق، التي تكتسب معناها فقط حينما نعيدها لمشيئته في خطة خلقه. فالعالم الحاليّ كان هو أرض الاختبار التي صمّمها الخالـق للبشريّة؛ حيث كفـل الخالق حريّـة الارادة التامّة في هذا العالم، وهـي حريّة لم يكن القصـد من منحها الحصـول على التمرّد والعصيان، إنمـا كان هدفها بيان ما إذا استطـاع الإنسان المضيّ في حياة منضبطة رغم حريّة الارادة الكاملة التي مُنحت له. إنّ على الإنسان أن يرتقي بنفسه من المستوى اللاأخلاقي للحيوان إلى المستوى الاخلاقيّ للبشر.

وعلى الرّغم مـن ممارسته مشاعـر الغضـب والكراهية ووجـود الحافز لممارسة العنف، فإنّ عليه أنْ يصبح حاضنًا للحبّ والسّلام، وعندما تأكل

obeikandi.com

المشاعر السلبيّة قلبه، فإنّ عليه أن يكون قادرًا على التخلص منها، ويرتقي بنفسه إلى مستوى المفكر الإيجابيّ.

وباختصار، فبالرّغم من امتلاك الإنسان الحريّةَ الكاملة، فإنّ عليه وبإرادته الشخصيّة أن يكون مثالاً للسلوك المنضبط والخلق السويّ، والإنسان الذي يقود نفسه بانضباط يكون قد اجتاز اختبار الخالق، وأولئك الذين يتصرّفون بهذه الطريقة هم فقط الذين سيتمّ اختيارهم من الربّ؛ خالق هذا الكون وحافظه؛ ليتمتعوا برحمته في جنّات الخلد.

إنّ دراسة علم النفس تخبرنا أنّ الإنسان وبطبعه محبّ للذات، وكلما تأذّت هذه (الأنا)، فإنّ ردّة فعل عدائيّة تنتج، التي بدورها تتطوّر إلى كراهية ورغبة في اللجوء إلى ممارسة العنف. علمًا بأنّ هذه النقطة قد تناولها بوضوح الكاتب (سي.أم. جود)، في كتابه «الشرّ المعاصر»، وهي نقطة الضعف النفسيّة في النفس البشريّة، التي تعزى لها حقيقة أنّ الاختلافات تأخذ غالبًا شكل الكراهية، التي بدورها تقود إلى العنف على نحو متكرّر.

إنّ هذا كله يُظهر أنّ العنف ليس في حاجة إلى أيّة عقيدة؛ فالعنف يظهر ويشتعل ذاتيًّا، بينما هو في ما يخصّ السّلام الاختيارُ الذي نتبنّاه نحن بأيدينا. وبذا، فإنّ السّلام يحتاج إلى كفاح إيجابيّ وتصميم قويّ من خلال عقيدة واضحة متكاملة.

إنّ الاستعداد للمحافظة على السّلام - مسألة اتخاذ قرارٍ واعٍ - هو ميزة بشريّة نبيلة. وبالنسبة للسلام، فإنّ على الإنسان أن يَحُدَّ من غضبه وأن يكون متسامحًا، كما عليه أن يسيطر على مشاعر الكراهية، وأن ينمّي مشاعر الحبّ للآخرين. فإذا أردنا أن نعمل على استدامة السّلام. فإنّ علينا أن نكبح

التفكير السلبيّ ونستعيضَ عنه بالتفكير البنّاء. ولكي يصبح السّلام حقيقة فإنّ على الإنسان أن يكون متمنيًا جيّدا للخيـر بدلاً من أن يكون صاحب نيّة سيّئة. وعليه، فـإنّ الاستفزاز يعدّ كافيًا لانطلاق العنـف، بينما لكي يستمرّ السّلام فـإنّ على الإنسـان أن يبطـل الاستفزاز ويتحلـى بالاعتدال وضبط النفس.

إنّ الإنسان وبممارسته للعنف يتبع غرائزه الأساسيّة، بينما ولتعزيز السّلام فإنّ عليه أن يقوم بتغيير أخلاقيّ كامل في نفسه. وليس قبل مثل هذا التحوّل يستطيع الفرد أن يكون قادرًا على أن يؤدّيَ دور محبّ للسلام.

إنّ الحاجة تكمن في تحويل اللاسلام إلى السّلام؛ حيث يتمكّن الفرد بعد هذا التحوّل من أن يؤدّي دور الشخص المسالم. ولهذا السبب، فإنّ عقيدة شاملة للسلام تكـون ضروريّة، والشـيء الأكيد أنّ هذا لـن يتحقق بإطلاق النداءات والتصريحات؛ لأنها لن تقنع الناس بتبني الوسائل السلميّة.

ولقد حملت الأحداث التاريخيّة مثل هذا كما فـي تجربتي الشخصيّة؛ إذ كنت منخرطًا في مهمّـة سلام للسنوات الخمس عشـرة الأخيرة، وأستطيع القول وبـكل اقتنـاع إنّ المئات والألوف مـن الشباب، الذيـن -وبإيعاز من عواطفهم- كانوا قد سيقوا للعنف والتشدّد، قـد اختبروا ثورة في تفكيرهم بعد استماعهم إلى منطق ما أقوله ودراستهم كتاباتي، وعبر الحجج القويّة، قد صنعت غلبة للسلام. لقد هجر هؤلاء طريق العنف، وتبنوا طريق السّلام.

وقد اكتشفت أنا في المقابل أنّ هؤلاء الشباب، وعلى نحو غير صحيح، كانوا قد اعتقدوا أنّ العنف مساوٍ للشجاعة، وأنّ الأفعال السلميّة مساوية للجبن. لقد اعتقدوا أنّ بإمكانهم تحقيق كلّ شيء بالعنف، وأنّ الوسائل السلميّة لن

تجلب لهم شيئًا. وبهذا الفهـم غير الصحيح فقد اعتقـدوا أنّ العنف يعني التقدّم، وأنّ السلم يعني التخلف.

وبعبارات أخرى، فقد كانت لديهم عقيدة «عنف» لا عقيدة سلام. ومعَ هذا فإنهم أصبحوا مقتنعيـن بحجج مفادها أنه لا توجد هنـاك عقيدة حقيقيّة في صالـح العنف، وأنّ العقيـدة الصحيحة تقف بجانب السّـلام في الواقع الحقيقيّ. علاوة على ذلك، فقد أصبح جليًّـا لهم أنّ نهج العنف الذي كانوا يتبعون لأجل تحقيق التقدّم في مصالحهم كان انتحاريًّا في نهاية المطاف، بينما كان نهـج السّلام الـذي قاطعوه لاعتقادهـم أنه غير منتـج، كان في الحقيقة هو الطريق الصحيح إلى التقدّم.

وبعد هذا الاكتشاف الفكريّ، فقد خضعت حياتهم لتحوّل من كونهم كانوا ناشطي عنف إلى ناشطي سلام. وفي الحقيقة، وفي بقاع مختلفة من العالم، فإنّ هناك عددًا كبيرًا من الشباب، الذيـن وبعد أن أصبحوا مدركين تمامًا لحقيقة هذه المسألة قد قاطعوا العنف في سبيل تسخيرِ طاقاتِهم في صالحِ مجالٍ سلميٍّ في الحياة، مثلِ: التعلمِ والإصلاح الاجتماعيّ والوعظ للسلام.